مكانة تحليل الخطاب في السوسيولسانيات

أ. طاهر جيلالي[1]

تحليل الخطاب نشاط متعدّد الاختصاصات، يتماشى والتّداولية في دراستها لأحداث اللّغة. وهو ينتمي للسوسيولسانيات بالمعنى الواسع، ويهتم بتنظيم إنتاج المعنى، ويتّخذ وجهة نظر- بعد ذلك- تكون إمّا اجتماعية أو بسيكولوجية أو تاريخية أو أدبية..

سمحت وجهة النّظر هذه بتحديد نواح منظّمة فيما بينها للأحداث مثّلت بعض التّجانس في هذا المستوى أي مستوى التشكّل التّداولي، فالأحداث الكلامية ليست محدّدة آليا بواسطة الصّيغ، لذلك وجب الانطلاق من شهادات فعلية - ولتكن تلك الشّهادات مدوّنة أو أرشيف- حيث يتم تحديد التّجانس الشّكلي المرتبط بالأحداث الكلامية، (وربّما ضمّ ذلك الأجناس ذات العلاقة)، ومن ثمّ ربط هذه التّجانسات الموضعية بالأعمال الشّكلية العامّة أي ربطها بالبعد اللّساني، لكي نراقب ذلك عن كثب، ونجعل الفرضيات المقدّمة مسبقا متجانسة نسبيا، ونجعل بين المواضع الّتي يختلف بعضها عن بعض أكثر دقة.

يستعمل تحليل الخطاب تقنيات عديدة، ولا يمكن أن ننفي الشّرعية عن إحداها مادامت تسمح بربط أشكال الملاحظة بآثار المعنى مباشرة، ولنذكر - على سبيل المثال- الإحصاء النصّي (الملاحظة التّجريبية للآثار الإحصائية الفارقة للتّوزيعات).

فالدّراسات التّداولية الّتي أقيمت على هذا النّوع من الأحداث اللّغوية مثل تلك الّتي نظّمت في مدوّنة، وكانت دراسات مشهود لها بالصّرامة والتّنظيم مثل ما نشره ر. لافون وفريقه في ما يدعى: (cahiers praximatiques)، وهناك دراسات تعتمد على العقد التّواصلي الّذي يعتمد بدوره على تحليل إنتاج المعنى اللّغوي مثل أعمال شارودو.

---

[1] قسم اللغة والأدب العربي. جامعة سعيدة

وربّما رجّح باحثون كثر الطّرائق المؤسّسة على لسانيات الكلام على غيرها ونزعوا إلى المعنى الّذي ساقه إ. بنفنستوغرينباخ وسيمونان، وهو ما وصفه كيليولي ومدرسته بالتّفصيل، والمعتمدة على العلامات نحو: (أشخاص، زمن، جهات، علامات نبر...)، وهي موجودة في كل الألسنة باعتبارها أنظمة مغلقة وصغيرة، تخضع لمبادئ تنظيمية عالمية، وخاصّة في التّأويل الّذي يستحيل دون الرّجوع إلى الموقف.

فالعلامات منتظمة من ناحية (وذلك يجعل تحليلها سهلا)، وهي من ناحية أخرى آثار عمليات مباشرة مرتبطة بأحداث كلامية، ومن هذه النّاحية، تعتبر أعمال ج. بوتي من جهة وشبكة اللّغة والعمل من جهة أخرى عملان مثاليان. فهما يطوّران لسانيات اجتماعية متجانسة وثيقة الارتباط بتحليل الخطاب. وبهذا الشّكل نلج بنائية سوسيولسانية حيث تبقى الآثار الاجتماعية لاستعمال ما يسمّى مثلا ب"التّلاعب بالألفاظ" عند ل. فجنشتاين مرتبطة ببيئة الاستعمالات الاجتماعية. وهي ليست قابلة للاستنتاج من العمل المجرّد لصيّغ المستعملة فقط، ولكن حيث تنتظم المتطلّبات الشكلية لتساهم في تشكيل أو عدم تشكيل العلاقات الاجتماعية.

الأصول والنّزعات: الخطاب- مثل الكثير من المفاهيم التّقنية- هو كلمة من اللّسان المشترك الّذي أضحى ضمن اختصاص بعينه، وتشير اللّغة المتداولة بهذا المصطلح إلى أفعال المنولوج الشّعبي، فيقال: قام بخطاب، ويتم لغاية الإقناع، ولمّا كان كذلك فهو يتعارض مع نشاطات لغوية وأحداث مادية أخرى، فيقال: كفى خطابات، يجب التّحرّك مثلا، ولا يهتم الاستعمال التّقني من المتداول هذا إلاّ بجانبين: النّصيّة واستعمال اللغة لعلاقات اجتماعية (من بين استعمالات أخرى، ولكن ليس لأجل الإقناع حصرا).

تعتمد اللّسانيات منذ سوسير على ثنائية لسان/كلام، فاللّسان اجتماعي، في حين أنّ الكلام فردي، فمصطلح خطاب يسمح بإعادة الجوانب الاجتماعية إلى استعمالات اللّسان الكلامية، وهذا المعنى عائد

في بدايته إلى ج. غيوم، ثم فرض المصطلح وجوده بالعودة إلى ز. هاريس من خلال مقطع: تحليل الخطاب: analyse (de) discours، analyse (du) discours. ويكن الرّجوع في ذلك إلى ز. هاريس: discours analysis)، 1954

وانطلاقا من الحقل الّذي فتحه هاريس الّذي طبّق الطّريقة التّوزيعية على الكلام (المكتوب) المتواصل، يمكننا أن نقسّم البحوث الّتي ظهرت بعد ذلك إلى ثلاثة نزعات كبرى:

1- بحوث تمّت على النّص المتواصل: وتهتم بقواعد ما فوق الجملة (النّحو النصّي)، وقد تطوّرت هذه البحوث في ألمانيا خاصّةعلى يده. فاينريش، وارتبطت بالدّراسات الأدبية، وضمّت بحوث كتلك الّتي قام بها جنيت ومسونيك وبارت، ويمكننا أن ندرج أيضا ثنائية بنفنيست الّتي قال بها سنة 1959 وهي: الحكاية/ الخطاب في حدود اندراجها ضمن إشكالية الأجناس الأدبية.

2- دراسات تجريبية للأداء والّتي تطوّرت في أمريكا الشّمالية خاصّة، حيث الوسائل الأساسية شفوية تعتمد على الحوار، وقد ساق فونس هيل ولابوف مثالا جيّدا على ذلك سنة 1977 عنوانه" الخطابات العلاجية"، وهي ترتبط بالعديد من الاختصاصات المجاورة لها نحو: "التّحليل الحواري" في إصداراته الأمريكية مع كل من ساكس وشغلوف وسويس وبي وليد، و"التّداولية" مع قرايسوسبربر وولسن، و"اللّسانيات الاجتماعية" و"السيميوتيقا" مع غريماس...

3- تيار نقدي وسياسي أين يمكن أن ينظمّ تحته ما يسمّى بالمدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب، والّتي تتضمّن هي نفسها الكثير من النّزعات... تعدّ الأكثر تنظيما وتنظيرا في هذا المجال، تضاف إليها تيارات أنجلوسكسونية مختلفة مثل تلك الّتي ينخرط فيها هودج وكريس ووليامس...

وبالموازات مع هذه الأعمال في علوم اللّغة، هناك أولوية فلسفية حول الخطاب برزت بشكل مستقل كان مرجعها الأساسي ميشال فوكو بالطّبع الّذي احتل هذا المفهوم مركزا محوريا في كتابه، فأوضح

في هذه المناسبة ما يسمّى ب" المستوى الحواري" أو "التّداولي"، ولكن هذا المفهوم لم يقدّم الكثير بشأن المعالجة التّقنية للجانب النّظري فيما يخص الأجناس (genres).

ونضيف إلى هذا كاتبين لم يستعملا هذا المفهوم، ولكنّ أعمالهما تصبّ في الحقل نفسه هما: جاك دريداوهاربرماس وعلى الرّغم من كون أعمالهما كانا منفصلين، إلاّ أنّهما قدّما إلى التيّار النّقدي بشكل خاص أفكارا أساسية جعلتهما موحّدين ضمن المنظور التّحليلي.

مكانة تحليل الخطاب في السّوسيولسانيات: نحاول في هذا القسم التّركيز على المناقشات التي تمّت حول المدرسة الفرنسية دون العودة إلى الأعمال التّمهيدية الأولى ل جون ديبوا، وبناء على ذلك يمكن اعتبار النّص المؤسّس لهذا القسم من الدّراسات والموجود بين دفتي كتاب م. بوشو والمعنون ب: "التّحليل الآلي للخطاب"الّذي ظهر سنة 1969 والّذي نشر ضمن مجموعة "psychologiques"علوم السّلوك بإشراف بريسون ومونت مولان.

إنّ الأمر - بالنّسبة للكاتب- لا يتعلّق بتطوّر علو اللّغة، ولكن بالأخذ بعين الاعتبار البعد اللّغوي والرّمزي للمرحلة السّوسيوسياسية مقابل علم النّفس الاجتماعي السّلوكي وبناء نظرية ماركسية للإيديولوجيات. فالرّجوع إلى هاريس الّذي يرى أنّه يجب على الجانب الإجرائي والعملي أن يتحقق في منظوره الآلي في التّحليل يكرّس الارتباط بالمادّي، لأنّه في خضم المناقشات الماركسية، يجب معارضة نظريّة الانعكاس كذلك الّتي تنفي بماديتها الظّواهر الأيديولوجية.

ولقد اهتمّت بالكتاب بحوث نقدية أخرى أنجزت آنذاك في فرنسا في مواضيع ذات علاقة مثل: "الأيديولوجيا الاقتصادية ل ب. أشار... فحتى وإن لم يكن هذا الحقل هو الّذي خلق مصطلح «تحليل الخطاب، فإنّه قد عمل على توحيده. لكنّ البعد النّقدي الّذي وحّد هذا التيّار قد كان أيضا شعارا وحّد المفاهيم الحالية وآثارها الاجتماعية، ويقي مجزّأ بين مختلف الالتزامات.

إنّ مصطلح السّوسيولسانيات لم يكن مكتمل المعالم في حقبة ولّت، فلم يصبح معروفا بشكله الحالي إلاّ في منتصف السّبعينيات إذ تضمّنته الدّراسات الماركسية (للحزب الشّيوعي الفرنسي) كأداة مواجهة بين الخط الغالب (لمارسليسّي)، والتيّار التّابع (لألتسير) بقيادة (بشو).

وقد نغالي - بالنّسبة للبحوث والدّراسات الماركسية الّتي جعلت من تحليل الخطاب فرعا من السوسيولسانيات- إذا قلنا: إنّ العلوم الاجتماعية تنطلق من إبستيمولوجيا حيادية، فلا تعد أن تكون الإيديولوجيا حينها سوى مكبحا بسيطا يكبح الكشف عن الحقيقة الموضوعية الّتي لا فائدة فيها للبرجوازية.

أمّا بالنسبة لتيّار (ألتوسير)، فلا وجود لوجهة النّظر الحيادية، فما لا يستطيع تحليل الخطاب كشفه إنّما هو وجهة النّظر الطّبقية خارج السّوسيولسانيات كفرع للماركسية- اللّنينية. هكذا طرح النّقاش، فهو لا يعني أبدا باحثين خارج ما يدعى: (CERM)، ولم يعد مناسبا بعد 1981، عندما انفصل التيّار التّابع (لألسوسير) عن الحزب الشّيوعي الفرنسي، وعلى الرّغم من ذلك، فحتّى إثارة الرّاية السّوسيولسانية للدّلالة على ذلك التّعارض كان ظاهرة عابرة، فإنّ هذا الانشطار يبقى مقبولا ولا يقف عند حدود الماركسية، ويسمح - إضافة إلى ذلك بتعريف تحليل الخطاب بالفرضية الإبستيمولوجية القويّة ل" المادية الخطابية"، والمهم هو التّموقع بالنّسبة إلى ما يسمّى بنظرية الانعكاس، فحسب هذه النّظرية الّتي نصرفها إلى (لينين)، والّتي ترتبط على كل حال بالمتخيّل المشترك للّغة منذ القرن 18، فإنّ الأطوار الاجتماعية تكون موضوعية، وما يجري في الإنتاج اللّغوي يكون ببساطة تمثّلات وأخبار، وهي في نهاية المطاف انعكاس بسيط. إنّ فرضيّة المادية الخطابية تلحّ - على العكس من ذلك - على الحدث الّذي تمثّله اللّغة في العالم، وعلى اعتبار الإنتاج اللّغوي أحداثا.

وتتمثّل خصوصية تحليل الخطاب في النّظر في هذه الأحداث باعتبارها تنظيمات اجتماعية بالمعنى الواسع، ونجد هنا وجهة النّظر البنائية... ويبقى أن نفحص علاقة ذلك بالتّطور العام للسّوسيولسانيات.

ففي خضم هذه المرحلة، توقف مصطلح السّوسيولسانيات عن كونه مجرّد عنوان لذلك التّراكم لأعمال اللّسانيات الاجتماعية، التي أضحت تتطوّر بشكل أصيل بواسطة: (أونكروفي) و(لاكس) و(كيم) لتتّخذ مغنى ضيّقا للمصطلح الّذي أصبح يعني: تنوّع الأنظمة اللّسانية، فكل لسان متنوّع، وهذا التّنوّع منتظم اجتماعيّا، فالسّوسيولسانيات حسب (أنكروفي)، هي اللّسانيات عينها. تحتفظ السّوسيولسانيات - بالإضافة إلى معناها الضيّق- بمعنى واسع، مدرجة دراسات الظّواهر اللّغوية حيث ترتبط الجوانب الاجتماعية واللّسانية، فإذا لم يكن تحليل الخطاب منتميا إلى المعنى الأوّل، فهو على العكس متضمّن في المعنى الثّاني.

قاد نظام الاختصاص إلى التّفكير بشكل أكثر دقة في علاقة الاختصاصات حول النّشاط اللّغوي، ويمكننا اليوم اعتبار الموقف المؤسّس لكل من (ج. بوتي) و(ب. فيالا) و(ج. سيمونان) و(غرنباخ) في مجلّة "نقد" لسنة 1976 موقفا مؤكّدا، وقد انتشر عن طريق رسائل نستفيد منها هنا لتلخيص الموقف:

1- الظّواهر اللّغوية في استعمالها الواقعي، هي ظواهر تداولية، أي تستعمل أشكالا ملموسة لتوليد آثار فعلية للمعنى.

2- نظام الأشكال (الصّيغ) هو الموضوع الخالص للّسانيات، وهو ليس موحّدا بشكل كلي، وموضوع السّوسيولسانيات هو دراسة هذا التّنوّع.

فإذا كان موضوع اللّسانيات الأشكال أو الصّيغ الجديرة بمعنى (أو القابلة لأن تكون ذات معنى)، فإنّ هذه الصّيغ لا تولّده بالشّكل ذاته في كل السّياقات (فجنشتاين)، وتجعله موضوع صراع أي المعاني أنسب (باختينوفولوشينوف)، فالعلوم الإنسانية وخاصّة علم الاجتماع، موضوعه دراسة الجانب الخاص بالمعنى المنجز وعلم الاجتماع اللّغوي موضوعه إنتاج المعنى الاجتماعي.

تظهر اللّسانيات الاجتماعية والّتي تدعى في اللّغة الفرنسية (la linguistique variationniste) أنّ كل الألسنة تتضمّن في كل المستويات - زيادة على القواعد الواضحة ذات التّطبيق العالمي في

لسان ما- قواعد أخرى منافسة لتلك، ذات تطبيق اختياري، والموقف هو صاحب الفصل في التّفريق بينهما.

ولكي توصف تلك القواعد، أدرج (لابوف) فكرة المتغيّر الأسلوبي، الّتي مفادها الدّلالة على أنّ حدس المتكلّم لا يدرك بواسطة سؤال بسيط في"المنطقة المتغيّرة"، ولكنّه يبدرك بشكل غير مباشر أثناء الاستخدام الفعلي.

ولقد قامت بحوث كثيرة منها نظرية الملاءمة لـــ(جيت)، وفكرة التّطابق لـــ(والد) لتثبت أنّ "ما" متغيّر أسلوبي ليس قبلا للتّصغير في القانون العام (درجة اليقظة العامّة)، ولا في الجانب التّطبيقي الدّي يتدخّل فيه الإنسان (تناقض الملاحظ)، ولكنّه مرتبط بمحل التّفاعل. فالمتغيّر الأسلوبي يتوسّع إذن بواسطة وصف التّشكّل الكلامي.

إذا كانت إشكالية اللسانيات الاجتماعية مقبولة على جميع المستويات فإن المنهجية الّتي تعتمد على المعادلة المرجعية ليست مكيّفة سوى للفونولوجيا. إنّ السّوسيولسانيات تدرس الصّيّغ اللسانية كنظام متغيّر يجب أن يعكس المنظور في المستويات الأخرى ويدرس التّوزيع الاجتماعي للمعنى، للصّيغة نفسها، وليس مثل ما يحصل في الفونولوجيا حيث تتغيّر الصّيّغ لتحقيق المعنى نفسه (والواقع أنّ التغيّر يصيب تحقيقات الصّيّغ المجرّدة نفسها).

إنّ السّوسيولسانيات وتحليل الخطاب ليسا مادّتا تعليم مستقلّين، ولكنّهما من الأنشطة المتعدّدة الاختصاصات، يتركّز اهتمامهما على وجهات نظر متكاملة، فعندما تهتم السّوسيولسانيات بما يؤول إليه نظام الصّيّغ والطّابع الاجتماعي لإنتاج المعنى، يحاول تحليل الخطاب دراسة الجوانب التّأويلية لكي تأخذ بجديّة الأبعاد الشّكلية للّغة الّتي تتحكّم في إنتاج المعنى وتحدّ منه بنائيّا.

خاتمة: يمثّل تحليل الخطاب الأفق المتعدّد الاختصاصات، اختصاص تأويلي يرفض نظرية الانعكاس، ولا يسعى إلى الكشف النهائي والتّام للإديولوجيا انطلاقا من وجهة نظر موضوعية، ويحد من طموحه إلى موضوعية محلية من وجهة نظر مرتبطة بموقف ما،

فالاختصاصات غير اللّسانية من العلوم الاجتماعية والإنسانية هي أسس لبناء وجهات نظر مماثلة، أمّا مادية النّظام اللّساني - بما في ذلك بعد الأفعال الكلامية أو اللّغوية - فهو مرتكز وسند لموضوعية كتلك، لأنّ هذا النّظام هو المادّة الأساسية للأحداث نفسها.

هوامش:

Pierre Achard (1997) Analyse de discours en sociolinguistique in Marie-louise Moreau(éd.) (1997) sociolinguistique: concepts de bases; Mardaga.

*** قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللّغات والفنون - جامعة سعيدة - الجزائر.**

1- Achard pierre (1993) la sociologie du langage ، paris; p.u.f."que-sais-je?. paris; kimé. ، 2- Bonnafous Simone (1991) L'immigration prise aux mots

3- Boutetjosiane (1994) Construire le sens ، Berne ، peterlang. londres: ، 4- DukteunA.van (éd.) (1985) handbook of discourse analysis academic press.

5- Dreard Gabrielle ، fialapierreettourniermourice (éd.) (1989) Courants sociolinguistiques ، paris; Klincksieck.

6- Mangueneau Dominique (1991) L'Analyse du discours: introduction paris; Hachette.،aux lecteurs de l'archive

7- Pêcheux Michel et Maldidier Denise ، L'inquiétude du discours ، paris; éditions des cendres.